البندقيّة

مضى. صنوه «حنظلة» في كل مكان، فوق دفاترنا وصحفنا وفي وجداننا وضمائرنا... في العالم الافتراضي، وعلى جدران شوارعنا والأحياء التي يسكنها الفقراء، والميادين الثائرة... في مخيّمات الشتات، والمدن الفلسطينية تحت الاحتلال، وعلى جدار الفصل العنصري. تحيّة من «الأخبار» وقرّائها إلى ناجي العلي «آخر الأحياء» كما رثاه الشاعر أحمد مطر. ناجي الذي يعلّمنا اليوم، كيف نواصل حمل البندقيّة... في الطريق إلى فلسطين.

فلسطين

شعبه في الدعاية والتحريض والتوعية والنقد والسرد بطريقة لم يعرفها العرب مسبقاً مطلقاً، بغض النظر عن أي وزن أضافته له فلسطين وقضيتها. لهذا، كان بحق أعجوبة عبقرية فلسطين وكفاح شعبها بامتياز. كان ناجي، أيضاً، الراوي الأكثر أمانة والأكثر سلاسة والأكثر وضوحاً والأكثر شمولاً والأكثر نضوجاً والأكثر فهماً لمأساة شعب فلسطين، وكان كذلك الأكثر إحساساً بمعاناة أهلها والأقرب إليهم. وبرغم ازدحام حقل الرواية وبرغم كثرة الرواة، كان ناجي الراوي الوحيد تقريباً من بين كل طبقة الرواة الاولى الذي لم يساوم أحداً ولم يداهن قائداً مطلقاً حين تعلق الأمر بحقنا في كل ذَرّة من تراب فلسطين. لهذا أصبح ضميرنا الذي يُعَنِّفُنا إن تعبنا أو ضعفنا أو حتى فكرنا بالتخاذل في لحظة وَهْن أو نوبة يأس- يكفي لأي متخاذل أن يرى رسماً واحداً حتى يخجل من نفسه، فناجي كان يرسم بنصل سكين استشهادي، لا بريشة رسام. وسردية ناجي عن فلسطين لم تترك بُعْداً مهماً صغر أو كبر إلا واستكشفته بتفصيل وفككته حتى النهاية (الدولي، العربي، الفلسطيني، القومي، الاجتماعي، الخ). والأهم، سردية ناجي عن فلسطين، كانت قصة فلسطين ومأساة شعبها كما عاشها (ويعيشها) وكما رآها (ويراها) أكثرنا فقراً وأكثرنا استضعافاً وأكثرنا اضطهاداً وأكثرنا مظلومية، وأيضاً أكثرنا حباً لفلسطين وتعلقاً بأرضها- لم تكن صدفة أن «فاطمة»، المرأة الفلسطينية الفقيرة بالذات، هي الشخصية الوحيدة من بين كل شخصيات ناجي العلي التي لا تضعف ولا تتعب ولا تُخْدَعْ أبداً، حتى حين يتعب أو يضعف أو يُخْدَعُ زوجها وكل من حولها. لهذا كَسَرَتْ سردية ناجي، وبسهولة مدهشة، كل أوهام أيديولوجيا المهزومين والباحثين عن الدولة المسخ وفككت سخافة دعايتهم ببراعة. فناجي كان يرى الأيديولوجيا والمصالح والسياسة والدعاية خلف كل ما يقولون ووراء كل ما يفعلون وجعلنا جميعاً نراها بوضوح الشمس.

وفوق كل ذلك، كانت فلسطين هي قضية ناجي الأولى والأخيرة والوحيدة. كانت فلسطين قضيته العامة وكانت فلسطين قضيته الخاصة، كما ينبغي أن تكون لكل فلسطيني. ففلسطين تبدو عنده كأنها قضية العصر وقضية العالم بمجمله، وليست قضية أهلها أو حتى قضية وطننا العربي. ففلسطين عنده تختصر كل القضايا وتختزل كل الأهداف وتختزن كل الدلالات (في الوطن العربي وفي العالم، ومن أصغر مخيم إلى البيت الأبيض). لهذا كانت فلسطين عنده أم كل القضايا وميزان الذهب الذي يزن به كل شيء ويحكم به على كل شخص. كان يعرف أن فلسطين هي كلمة السر في هذا العالم. هي البداية وهي النهاية. كل شيء في هذا العالم يبدأ عندها وكل شيء ينتهي فيها. عرف أن حريتها تحمل في طياتها بذور تغيير هذا العالم. تحمل في ثناياها تأكيداً أن هذا الليل لا يمكن أن يكون أبدياً. تحمل في أحشائها تأكيداً بوجود شمس. كان مثل كاسترو إلفيس البرازيلي بعبقريته، وبصيرته، وجماله، وشجاعته ونبوءته. سقط وهو يرى ما لا يراه ولن يراه أبداً من «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة». سقط وهو يرى عالماً جميلاً رائعاً يلوح هناك في الأفق يستحق حقاً أن يموت الإنسان من أجله.

مع كل رسم جديد، كان ناجي يكسر حدود الإبداع ويعيد تشكيلها من جديد، فتبدو أبعد مما يمكن لأي مبدع أن يحلم. مع كل رسم جديد، كان ناجي يعيد تعريف معنى مفردة «الموهبة» الفذة، فتغدو أصعب مما يمكن لأي موهوب حقاً حتى أن يتخيل. ففي رسم واحد فقط، قد يبدو بسيطاً لكل من يراه، تجده يجمع بين عبقرية مونتسكيو (الرسائل الفارسية) وإبداع ابن المقفع (كليلة ودمنة). فحين احتجت السفارة الأميركية في الكويت على رسومات ناجي العلي (في جريدة القبس الكويتية) وطلبوا منه أن لا يذكر اسم أميركا مرة أخرى في رسوماته، عاد إلى بيته ورسم اللوحة المدهشة: «تسقط جارة كندا».

رغم كل ذلك، لم تكن الموهبة الفذة أو العبقرية والإبداع وحدها سر جاذبية ناجي العلي ورسوماته فقط، بل، وربما أكثر أهمية، شجاعته الفائقة كذلك. كان فكتور جارا، الشاعر والمغني والشهيد التشيلي، ورفيق سلفادور أليندي محقاً:

«الأغنية التي تُغنى بشجاعة،
ستظل أغنية جديدة إلى الأبد».
تسقط جارة كندا.

* كاتب عربي

في رسم واحد قد يبدو بسيطاً لكل من يراه، تجده يجمع بين عبقرية مونتسكيو وإبداع ابن المقفع

نصّ: ناجي العلي في لقاء مع مجلة كل العرب، مصر، آب 1985.

رسوم: عامر شوملي، فلسطين www.amershomali.info